شـــرح

كشف الشبهات

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

ت ١٢٠٦ رحمه الله رحمة واسعة

شرح فضيلة الشيخ

محمد ابن عبد الله المالكي

قَالَ المُصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِم إِلى آخِرِهِمْ؛ الَّذي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ.

وَعَرَفْتَ ما أَصْبَحَ غَالِبُ النَّاسِ عَلَيهِ مِنَ الجَهْلِ بِهَذَا = أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ:

الأُولَى: الفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس].

وَأَفَادَكَ أَيْضًا الخَوْفَ العَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِالجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ زُلْفَى كَمَا ظَنَّ الكُفَّارُ.

خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى عليه السلام - مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ - أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فَحِينئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

قال الشارح وفقه الله:

يقول شَيْخ الإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِالجَهْلِ) ، الأصل أن الإنسان يُعذر بالجهل، لكن ثَم أمورٌ ومسلمات في الدين لا يُعذر الإنسان بالجهل بها، لأن هذا مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، فإن الإنسان إذا قال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله) عَلِمَ عِلْم اليقين أنه مُفارقٌ ما كان عليه من صرف العبادة لغير الله، لأن معنى (الإسلام) هو تركُ عبادة غير الله، وسواءً كان هذا الغير مرضيًا عند الله كالملائكة والأنبياء والصالحين أو غير مرضي كالشياطين والسحرة وغيرهم، فإنه لا يصح صرف شيء من العبادة لغير الله، ولا يُعذر أحدٌ بالجهل بذلك، فإن النبي ﷺ قد أنكر على مسلمي الفتح وهم كانوا مُسلمين جُدد لم يمض عليهم في الإسلام إلا أيام، ومع ذلك النبي ﷺ أنكرَ

عليهم في أقل مما يفعله كثيرٌ من الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم، أقل من ذلك بكثير، أقل من أن يعبدوا الأوثان والقبور والأولياء وغيرها، فإن في حديث أبي واقد الليثي أن النبي ﷺ لما خرج لملاقاة هوازن في وادي حنين شرقي عرفة خرج معه أكثر من عشرة آلاف مُقاتل، جُلهم من مسلمة الفتح.

ولما مروا بشجرةٍ يُقال لها: ذات الأنواط، والأنواط: جمع نوط، وهو المعلاق الذي يُعلق عليه الشيء، وكانت لهوازن وغيرهم، وكانوا عليها أسيافهم من أجل أنْ تحصل لهم فيها البركة فلا تُخطئ من ضربته، وهذا لاشك أنه اعتقادٌ باطل، فإن اعتقد الإنسان أنها تصنع ذلك بنفسها فهو شركٌ، وإن اعتقد أنها سببٌ فهو شركٌ أصغر، الأول يكون شركٌ أكبر، والثاني شركٌ أصغر لاتخاذ ما ليس بسبب سببًا، والنبي ﷺ لما قالوا تلك الكلمة وهو يعلم أنهم ما أرادوا الشرك لا الأكبر ولا الأصغر لأنهم على التو خرجوا من الشرك وتركوه، ودخلوا في الإسلام.

ولكنه ﷺ لم يترك الأمر بلا توجيه، بل وجَّه وشدَّد في الكلام عليهم، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]»، وهذا من أجل سد الذرائع ومن أجل سد الطُّرق الموصلة إلى الشرك الأكبر إلى الشرك بنوعيه، وأمَّا مسلمين اليوم، فهُم يأتون بأشد مما أتى به مُشركو قريش، وأشد مما أتى به مسلمة الفتح الذين دخلوا في الإسلام حديثًا ليس لهم فيه إلا أيام، وأما هؤلاء فهم مسلمون بالولادة، وهم يقرؤون القرآن، ويقفون على الآيات التي فيها بيان عدم جواز صرف شيء من العبادة لغير الله، إلا أنهم يُخالفونها، ولا أقل من سورة الفاتحة، فإن كل مسلم في هذه الدنيا وعلى هذه البسيطة هو يعلم مقاصد سورة الفاتحة العُظمى الرئيسية وليست كثيرة، منها الإقرار لله ﷻ بالربوبية والإقرار له بالألوهية، والإقرار له بالأسماء والصفات.

ومنها: تجديد العهد مع الله ﷻ بأن لا يعبد هذا المصلي الذي يقرأ الفاتحة ألا يعبد غير الله، لا بالاستعانة، ولا بالعبادة بعمومها ولا أي نوع من أنواعها، ولا بالاستعاذة خصوصًا، لأن الناس يحتاجون إلى العون إذا ضعفوا ومرضوا، فإنهم يحتاجون إلى العَون، فالله ﷻ بين لهم أنه لا يصح طلب العون من غير الله خصوصًا فيما لا يقدر عليه إلا الله، لأن هذا هو العبادة، ولذلك لا يُعذر أحدٌ بالجهل في هذه

الأمور؛ لأنها من المسلمات، هناك أمورٌ معلومٌ من الدين بالضرورة، ترك الشرك ترك الذبح لغير الله ترك النذر، هذه أول وأعظم أولويات الإسلام، فهو يقرأ عن أول رسول وهو نوح خاصم قومه في قضية صرف العبادة لغير الله، وهو يقرأ أن الجن أيضًا كما في سورة الجن بينوا أنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله.

وكذلك في عددٍ من الآيات والسور، فإن الله ﷻ بين في كتابه العزيز بيانًا شافيًا وافيًا لا يدع مجالًا للجهل والشك، من قرأه عَلم، لكن المُصيبة أنهم ليسوا بجهال بمعنى فاقدي المعرفة، لكنهم جُهال بمعنى فاقدي البصيرة، فاقدي الإخلاص لله ﷻ، فاقدي الاتباع لرسوله ﷺ، أما هُم فليسوا بفاقدين للمعرفة، حالهم حال إبليس الذي لما عصى واستكبر وكفر لم يكن فاقدًا للمعرفة، وإنما كان فاقدًا للبصيرة وفاقدًا للعبادة وهي التسليم والإذعان لله جل وعلا في تطبيق أوامره، واجتناب نواهيه.

لذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (**وَقَدْ يَقُولُها**) يعني هذا الذي هو منتسبٌ للإسلام ويأتي بهذا الكفر، (**وَقَدْ يَقُولُها وَهُوَ جَاهِلٌ**) في الحقيقة هو جاهل، لكنه لا يُعذر بالجهل، لأن هذا مما هو مُسلمٌ به من بديهيات الإسلام، وليس من دقائق مسائل العلم حتى يحتاج إلى وقت ليتبصرها، وليس من عويص دقائق العلم حتى يحتاج إلى وقت ليتبصرها، ولكنها من بسيط مسائل العلم التي يفهمها ويعرفها أول ما يدخل الإسلام، وهي معنى قول: لا إله إلا الله لا معبود بحقٍ إلا الله، ومعنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، أيضًا واضح، أي لن أستعين بغيرك، ولن أصرف شيئًا من العبادة لغيرك، فما الذي حمله بعد ذلك إلى أن يأتي لصاحب القبر ويقول: أعني وأغثني، وأعذني، واشفع لي، وارزقني، واشفني، وغير ذلك ما حملوا على ذلك الجهل الذي هو فقدُ المعرفة، ولكن الجهل الذي هو فقدُ القيام بهذه المعرفة، فقد القيام بحق هذه المعرفة وهو العمل، لأنه اتبع هواه، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣] ، عنده علم، لكن أضلَّه الله لكونه قدَّم الهوى على الهدى.

ثم قال: (**وَقَدْ يَقُولُها وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ زُلْفَى كَمَا ظَنَّ الكُفَّارُ**).

الظَّن هنا: بمعنى الاعتقاد، يعتقد أنها تُقربه إلى الله، وهذا هو عين صنيع كفار قريش، قالوا هكذا:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ؛ أي: لا نعبدهم لكونها معبودات تستحق أن تُعبد، لكن نعبدهم فقط من أجل أن يُقربونا إلى الله زُلْفى، فأنكر الله عليهم ذلك ولم يقبل منهم ولم يعذرهم، فكيف بمن يأتي في هذا الزمن ويُريد أنْ يصرف شيئًا من العبادة لغير الله، ويقول: إنها فقط قُربة حتى يشفعوا لنا وغير ذلك.. لاشك أن محض كذب وافتراء.

ثم قال: (كَمَا ظَنَّ الكُفَّارُ)، هل هو جهل أن هذا الفعل هو صنيع الكفار الذين ردَّ الله ﷻ قولهم في القرآن وقاتلهم النبي ﷺ بالرغم من أنهم اعتذروا بهذا العذر، هو لا يجهل؛ لأنه يقرأ قرآنًا، فيمر عليه، والكلام هنا ليس في سياق أعجمي دخل في الإسلام على التو، وإنما هو في سياقٍ وُلدوا على الإسلام، ونشأوا في حياض الإسلام، وترعرعوا في الإسلام، وقرؤوا وسمعوا القرآن، فإن قصروا في تعلمه ومعرفته، فالنقص من جهتهم هم المسؤولون عن ذلك، لأنهم تخلوا عن تعلمه وتفهمه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ)، يعني إذا الله ﷻ وفقك للوقوف على ما قصَّ عن قوم موسى، وقوف معتبرٍ متبصرٍ مُتدبر، لأنه في القرآن مع ما قص الله عن موسى مع صلاحهم عن قوم موسى، مع صلاحهم وعلمهم صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين أتوا إلى موسى قائلين: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

إذًا لو كانوا لا يعلمون لعلمهم ولما كفَّرهم وقاتلهم كما فعل النبي ﷺ مع قريش، علموا أن معنى لا إله إلا الله أي اتركوا عبادة الأصنام، هم علموا هذا، لكنهم أبوا أن يقبلوا بهذا أو يستسلموا له، لذلك كفرهم وقاتلهم.

وهؤلاء الناس اليوم الذين يعبدون الأولياء والقبور في مجملهم في معظمهم أنهم يعلمون لأنهم يقرؤون القرآن، وخصوصًا الفاتحة، وهم يعرفون معنى قول الله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، لكنهم أبوا إلا أن يتبعوا أهواءهم، كما صنع قوم موسى الذين جاءوا وقالوا: (﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا﴾ [الأعراف:١٣٨]، يعني نعبده ونراه نُريد إله، ما قالوا: اجعل لنا إله، كيف هو نبيٌ مُرسلٌ من عند الله ويجعل لكم إلهًا، هذا غاية الجهل الذي ليس هو بمعنى عدم المعرفة وفقد المعرفة، لكنه الجهل الذي

بمعنى الإعراض كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أي أعرضت عنها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:١٢٦]، أي يُعرَ عنك.

إذًا هؤلاء إنما تركوا توحيد الله إعراضًا واستكبارًا، وليس جهلًا بمعنى: عدم المعرفة أو فقد المعرفة، وإنما فقد الإخلاص، وفقْد التسليم والإذعان.

قال: (**فَحِينئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هٰذَا وَأَمْثَالِهِ**)، يعظم عندك الخوف من الوقوع في هذا الخطر العظيم، ويعظم عندك الحرص على طلب وتتبع ما يُخلصك من هذا الذي وقع فيه كثير من الناس، فهذا وأمثاله.

قَالَ المُصنِف رَحِمَهُ اللَّهُ:

واعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرةٌ، وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر].

قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (واعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً)، ليميز الخبيث من الطيب، ليميز الصادق من الكاذب، ليميز الذي يكون فاقدًا للمعرفة، من الذي يكون فاقدًا للإرادة وفاقدًا للإخلاص وصدق النية، لهذا قال: (جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً)، هؤلاء الأعداء ماذا يصنعون؟ يُحرض بعضهم بعضًا على هذا النبي، وسواءٌ كان نبي أو مَن يحمل بعده الرسالة من العلماء، لذلك قال: (﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢])، يقول ربنا عَزَّوَجَلَّ مُسليًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ويُحاربونك، ويحسدونك، وهذه السنة الجارية فيمن سبقك، أن نجعل لكل نبي نُرسله إلى الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن، وهذا فيه إثبات أن الشياطين توجد في الإنس كما توجد في الجن، والشياطين جمع شيطان، وهو مأخوذٌ من شطنَ أي فسقَ وخرج عن الطريق، فكل من عادى التوحيد فهو شيطان.

وهؤلاء وظيفتهم يقومون بضد ما جاءت به الرسل، ما هو؟ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، أي يُزين بعضهم إلى بعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويُزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة يغتر به السفهاء وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المنمقة المزخرفة، والعبارات الموهومة أو المموهة، فيعتقدون الحق باطلًا،

والباطل حقًا.

لذلك أخبر الله ﷻ أنه جعل لكل الأنبياء، وجعل للنبي ﷺ أعداء، هؤلاء الأعداء بعضهم من الإنس وبعضهم من الجن، وهم كلهم شياطين، لأن كل من خاصم التوحيد فهو شيطان، وسُمي شيطانًا؛ لأنه خرج عن الطريق الحق وعانده وعارضه.

ثم قال: (وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرةٌ)، وهذا حقٌ ومعلوم أن (قد) إذا جاءت مع المضارع تُفيد إما التكثير، وإما التقليل، وهي هنا تفيد التكثير، أن كثير من أعداء التوحيد عندهم علوم، لكن هذه العلوم ما استفادوا منها، فإنهم عملوا على معارضتها، ولم يعملوا على التسليم بها، إنما عملوا على معارضتها، أعملوا هذه العلوم التي منحهم الله إياهم بمعارضة الحق ومعارضة التوحيد الذي دلَّت عليه جميع النصوص، لذلك قال: (وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرةٌ، وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ)، حُجج يأتون بحجج يُقارعون بها من لا علم عنده، إلا إذا أخرجوها لصاحب العلم دحضها وبيَّن زيفها وعوارها، كأسهل ما يكون، لكنهم لا يأتون لأهل العلم، وإنما يذهبون للعامة، فيُلبسوا عليهم دينهم.

قال: (﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر])، يعني أولئك الذين يُعارضون التوحيد لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، يعني بالآيات الواضحة البينة الآيات المعجزة الباهرة، وكذلك بالكتب الإلهية، وجاؤوهم بالعلم المبين، وجاؤوهم بالهدى بعد الضلال، فرحوا بما عندهم من العلم أي علم؟ الذي أرادوا به مناقضة دين الرسل، ومعارضتهم، ومن المعلوم أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به، وتمسكهم ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقًا، وهذا عام لجميع العلوم.